مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

جمال العمارة الإسلامية الدرعية

"مسجد قصر تسركات نموذجا "

The beauty of islamic architure,diryah

Tasrakat s palace mosque as amodel

أبو سفيان اليوسفي*، باحث في سلك الدكتوراه كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل القنيطرة، المغرب.

abousoufiane.elyousfi@gmail.com

تاريخ ارسال المقال: 2021/06/03	تاريخ القبول: 2021/08/01	تاريخ النشر: 2021/09/01

*المؤلف المرسل

الملخص:

يعتبر مسجد قصر تسركات الذي بناه شيخ الجماعة الرجل المصلح سيدي علي بن يوسف رحمه الله، نموذجا للعمارة الإسلامية الدرعية، التي تحتوي على جميع العناصر المتوفرة في العمارة الإسلامية في المشرق والمغرب، إذ أن المسجد لا زال يحتفظ على جميع عناصره التي بني عليها منذ قرون، رغم التقلبات الطبيعية والسياسية التي تعيشها المنطقة، من محراب ومنبر وميضأة وقاعة الصلاة ومكان مبيت الطلبة، وغيرها من العناصر التي تعتبر أساسية في العمارة الإسلامية. ففيه كانت تقام الصلوات الخمس وصلاة الجمعة إضافة إلى القاء الدروس الدينية من وعظ وإرشاد وتعليم للقرآن الكريم وتحفيظه، وتعلم العلوم الشرعية، وتدبير أمورهم الاجتماعية كالإعلان عن الأفراح والإخبار عن الأحزان وتذليل ملك الأحباس، وغيرها من الوظائف التي يؤديها المسجد.

الكلمات المفتاحية: العمارة، المسجد، المكونات، الإسلامية.

Abstract :

The Qasr Taraket Mosque, which was built by the sheikh of the community, the reformer man Sidi Ben Youssef, may god have mercy on him, is considered as a model for the Islamic architecture of Deraa, which contains the same elements as existed in Maghreb and Mashreq.

The mosque still retains all its elements on which it was built centuries ago despite the natural and political fluctuations on the region, such as: tribune, prayer nich and other composents.

The mosque was so important in the life of the Qasr within it, people pray and learn religious lessons such as: preaching, guiding, teaching the Quran and Shariaa science, and announcing weddings and news about sorrows and other roles.

Keywords: Architecture, mosque, contituents, islamic

مقدّمة:

لم تكن العمارة الإسلامية من نتاج أيدي عرب شبه الجزيرة العربية وحدهم، بل كانت نتاجا مدهشا من اختلاط العرب بأبناء الأقوام الأخرى، مثل القبط في مصر والروم في الشام والفرس في إيران. فقدم أبناء كل منطقة تراثهم المعماري بحسب ما تتمتع به شخصيتهم وبيئتهم، بالإضافة لتأثرهم الروحي والفكري بالإسلام، فظهر خليط معماري مميز، استمر في التطور والرسوخ حتى تخلص من كل الطرز غير العربية، وأصبح الطراز الإسلامي خاليا من التأثرات الأجنبية وصار طرازا قائما بذاته تتأثر به الطرز الفنية الأخرى.

لكن طراز العمارة الإسلامية المغربية عامة، والعمارة الإسلامية في منطقة درعة خاصة، لازالت تحتفظ ببصمة نتاج أيدي الأمازيغ والقبائل الصحراوية. وما يتميز به المغاربة من مهارات وخبرات في مجال العمارة، وكذا ما تمليه عليهم ثقافتهم وعاداتهم، فكانت المساجد والقصور والواحات والرباطات والزوايا الدرعية دليلا على استقلال العمارة الإسلامية المغربية بتراثها العمراني وشكلها الهندسي.

يعتبر مسجد تسركات الذي بناه العالم الرباني الشيخ سيدي علي بن يوسف نموذجا للعمارة الإسلامية الدرعية، حيث لازال يحتفظ على شكله الهندسي ومكونه العمراني، رغم التقلبات المناخية والتغيرات السياسية التي تعرفها المنطقة منذ قرون.

جاء هذا البحث ليسلط الضوء على جمالية عمارة المسجد المذكور ليبين فعلا هل يعتبر مسجد قصر تسركات نموذجا للعمارة الإسلامية في منطقة درعة، واعتمدت فيه على المنهج التحليلي الوصفي، للفت أنظار الباحثين إلى الاهتمام بهذا الشق في البحث العلمي، ولا سيما في هذه المنطقة التي تعتبر نسيا منسيا.

المبحث الأول: التعريف بالمفاهيم

المطلب الأول: مفهوم العمارة

العِمَارةُ لغة: مَا يُعْمَر بِهِ الْمَكَانُ [1] والْعِمَارَةُ أَيْضًا الْقَبِيلَةُ وَالْعَشِيرَةُ، وَمَكَانٌ عَمِيرٌ أَيْ عَامِرٌ، وأَعْمَرَهُ دَارًا أَوْ أَرْضًا أَوْ إِبِلًا أَعْطَاهُ إِيَّاهَا وَقَالَ: هِيَ لَكَ عُمْرِي أَوْ عُمْرَكَ فَإِذَا مِتَّ رَجَعَتْ إِلَيَّ. وَالِاسْمُ العمرى واعْتَمَرَهُ زَارَهُ، واعتمر في الْحَجِّ، وَاعْتَمَرَ تَعَمَّمَ بِالْعِمَامَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَ اسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) أَيْ جَعَلَكُمْ عُمَّارَهَا، وعَمَّرَهُ اللَّهُ تَعْمِيرًا طَوَّلَ عُمْرَهُ، وعُمَّارُ الْبُيُوتِ سُكَّانُهَا مِنَ الْجِنِّ[2].

العمارة اصطلاحا: كل ما يبنى على وجه الأرض بهدف التنمية العمرانية التي تسعى إلى خدمة الفرد والمجتمع، وتستجيب لكافة متطلباته، سكنية وإدارية وثقافية... الخ. ولا تتعارض مع العقيدة

الإسلامية، وعلى ذلك فليس منها ما يبنى لتخليد الإنسان، كما قال تعالى في قوم عاد «أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون.[3]

أما ما يطلق عليه جوازا العمارة الإسلامية، فهي تنحصر فيما بنى من تراث في منطقة محددة من الأرض أطلق عليها العالم الإسلامي، وفي فترة من الزمن أطلق عليها العصر الإسلامي، كما تنحصر فيما يبنى من مبان تحمل بعض العناصر المعمارية المميزة مثل القبة والقبو والعقد مضافة إليها الزخارف الهندسية أو النباتية، وهذا ما يتعارض مع عالمية الإسلام وانتشاره في بيئات وحضارات مختلفة شرقا وغربا، جنوبا أو شمالا لها خصائصها المعمارية.[4]

المطلب الثاني: مفهوم المسجد

المسجد لغة: المسجَد والمسجِد الَّذِي يُسْجَدُ فِيهِ، وَفِي الصِّحَاحِ وَاحِدُ الْمَسَاجِدِ .

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: كُلُّ مَوْضِعٍ يُتَعَبَّدُ فِيهِ فَهُوَ مسجَد أو مسجِد، أَلا تَرَى أَن النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ :جُعِلَتْ لِيَ الأَرض مَسْجِدًا وَطَهُورًا. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ :وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ.[5]

المسجد اصطلاحا: جمعه مساجد وهي أقدم العمائر الإسلامية وأكثرها ارتباطا بالإسلام، لأنها مكان إقامة صلاة الجماعة، وأول مسجد بني في الإسلام هو مسجد قباء ثم مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. وكانت المساجد تلعب دورا كبيرا يتجاوز دورها كمكان ذا طابع ديني تؤدى فيه الصلاة، فكانت تخرج منها القرارات السياسية، وتلقى الخطب السياسية وكان مكانا للتشاور في أمو المسلمين العامة.[6]

المبحث الثاني: تاريخ بناء المسجد ومكانته وهندسته المعمارية

المطلب الأول: تاريخ بناء مسجد قصر تسركات

لم تذكر المصادر تاريخ بناء هذه المعلمة التاريخية، إلا ما يمكن استنباطه واستنتاجه من خلال ما ذكره صاحب طلعة المشتري في سرد ترجمة محمد بن أحمد الناصري الدرعي، حيث ابتدأ الشيخ رحمه بتعلم اللغة العربية واللسان على شيخ الجماعة ومربي المتعلمين القائم الصالح أبي الحسن علي بن يوسف الدرعي وكذا الفقه والتجويد، ولازمه مدة مديدة إلى أن نال منه مراده.[7] كما أنه ذكر بعض القصص التي جرت بين شيخ الجماعة علي بن يوسف مؤسس القصر وباني المسجد وتلميذه محمد بن أحمد الناصري، ومولد محمد بن أحمد الناصري سنة 1011هـ، وبالتالي فإن تاريخ بناء المسجد يكون قبل 1011هـ.

المطلب الثاني: مكانة مسجد قصر تسركات

يعتبر مسجد قصر تسركات مركز ترابط سكان القصر وهيكلهم المادي الملموس، فلا تكتمل جماعة هذا القصر إلا بهذا المسجد الذي يربط بين أفراده بعضهم ببعض، يتلاقون فيه للصلاة وتبادل الرأي، ويقصدونه للوقوف على أخبار جماعتهم ويلتقون فيه مع أعيانهم.

لقد لعب مسجد القصر دورا أساسيا في حياة سكان القصر، ففيه كانت تقام الصلوات الخمس وصلاة الجمعة إضافة إلى القاء الدروس الدينية من وعظ وإرشاد وتعليم للقرآن الكريم وتحفيظه، وتعلم العلوم الشرعية، وتدبير أمورهم الاجتماعية كالإعلان عن الأفراح والإخبار عن الأحزان وتذليل ملك الأحباس.

فهكذا كان دور المسجد منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يكن المسجد على عهده صلى الله عليه وسلم مكانا للصلوات فحسب، وإنما كان مدرسة للتعليم والتهذيب، أستاذها ومعلمها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وطلابها هم أصحابه الأبرار رضي الله عنهم، وكان محكمة للقضاء بما أنزل الله، يفصل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من ينيبه بين المتخاصمين، وكان دارا للشورى يتداول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون في أخص شؤونهم وأمورهم، وكان مركزا لقيادة الجيش تعقد فيه الألوية للرؤساء والقواد ويزودون بالنصائح والتعليمات. وكان نزلا لاستقبال الوفود والرسل الذين توجههم الدول للقاء الرسول صلى الله عليه وسلم، وهكذا كانت رسالة المسجد في ذلك الوقت رسالة خير وإصلاح وتهذيب.[8]

المطلب الثالث: الهندسة المعمارية للمسجد.

تشتمل الهندسة المعمارية للمسجد على عدة مرافق أساسية مختلفة الأشكال والوظائف، فهو يشتمل على قاعة للصلاة وقاعة متوسطة المساحة للوضوء، ومكان لتسخين الماء ويفتقد المسجد إلى المئذنة، وهي ميزة تتميز بها المساجد القديمة التي توجد في المناطق الصحراوية، فقد كان يرفع الأذان قديما فوق سطح المسجد.

وهكذا كانت المساجد القديمة، فالأذان كان يرفع من باب المسجد أو من فوق سقفه أو من أعلى بيت مجاور دون حاجة إلى المئذنة والقباب، وهي إضافات معمارية ظهرت منذ وقت مبكر، عندما أنشأ الوليد بن عبد الملك فيه الصومعة ولكنها ليست من أجزاء المسجد الأساسية.[9]

يوجد مسجد القصر في الجهة الشرقية للقصر محاذيا للباب الرئيسي الذي يدخل منه للقصر، وهو الباب الوحيد للدخول والخروج من وإلى القصر قديما، ولازال يحتفظ فيه على باب خشبي منيع ثقب الرصاص وأثار النيران عليه، حيث أن القصر محصن بجدار سميك دفاعي ضد الغارات العدوانية.

ويظهر المسجد شامخا من جميع زواياه، وهو معلم مبني بشكل قوي ومحصن، يحتوي على أعمدة ذات أقواس نصف دائرية عليها سقيفة أنشئت من القصب موضوعة من فوق جذوع النخل، وبهذا فإن المسجد يتربع على مساحة إجمالية شاسعة تقدر بحولي 400 متر يبلغ طوله حولي 30متر وعرضه حولي 12المتر.

والذي يميز مسجد قصر تسركات في بنائه المعماري، هو شكله الذي يوحي للناظر أنه حصن محصن، إذ أن جدران المسجد سميكة ومرتفعة مبنية من الطين " اللوح" وهي طريقة معمارية شائعة في القصور والواحات الصحراوية.

وحسب البحث الميداني لا حظنا أن المسجد لا زال يحتفظ بجميع أجزائه المعمارية وأشكاله الهندسية، وهذا ما يميزه عن باقي المساجد التي فقدت بعض أشكالها الهندسية او بعض أجزائها المعمارية أو كلها، هذا وقد تم ترميم بعض أجزائه في ثمانينيات القرن الماضي، وبعضها تم ترميمها حديثا.

المبحث الثالث: مكونات مسجد قصر تسركات.

المطلب الأول: الباب الرئيسي للمسجد

يقع الباب الرئيسي للمسجد من الجهة الجنوبية وهو على جزئين:

باب بدون دفة مبني على شكل قوس نصف دائري يبلغ عرضه 1.35 متر، ويبلغ طوله 2.25 متر وسمك حائطه يبلغ حولي 48 سنتم، يفصل بين الباب الأول والباب الثاني مساحة صغيرة تقدر مساحتها بحولي 9 أمتار طولها 4.30 متر وعرضها 2.28 متر، وعلى جانبها مقاعد" دكاكين" مبنية بالحجر والطين يجلس فيها الناس لانتظار الصلاة أو تداول الحديث، كما يجلسون فيها أثناء المواسم الدينية قصد الملاقاة والتصافح بينهم، ويعتبر هذا المكان مهم لدى سكان القصر لتناقل الأخبار وتداول الحديث. والملجأ الرئيسي لدى الشيوخ في فصل الشتاء حيث يشعرون بالدفء حينما يسند كل واحد منهم كتفه إلى الآخر، وهم يتحدثون عن تاريخ القصر وشيوخه الذين مضوا حياتهم في خدمته، والمعارك التي دارت بينهم وبين غيرهم من القبائل الأخرى، فلا ينفض مجلسهم إلا بعد أذان العشاء، ويزيد مجلسهم جمالا اختلاف السنتهم بالحديث، فأحيانا يتحدث أحدهم باللسان الأمازيغي ويرد عليه الأخر باللهجة المغربية، وهكذا يتبادلون حديثهم في ود وأخوة لا تكاد تمل منه.

الجزء الثاني وهو يلي الجزء الأول ومنه يدخل إلى المسجد مباشرة، وبه دفة خشبية يظهر عليها أنها حديثة الصنع لا تحمل أي زخرفة، يبلغ طوله حولي 1.90متر وعرضه 1.7 متر.

المطلب الثاني: الميضأة.

الميضأة: وتعني مغتسل أو مطهرة وهو مكان الوضوء.[10]

يعتبر مكان الوضوء جزءا أساسيا من أجزاء المسجد لما لها من دور هام في حياة سكان القصر والغرباء، وهي قاعة تبلغ مساحتها الإجمالية 132 متر على طول 12 المتر وعرض 11 المتر.

توجد قاعة الوضوء مباشرة أمام المدخل الرئيسي للمسجد، تتوسطها بئر عمرها بعمر المسجد منها يسقي سكان القصر الماء سواء للوضوء أو الاغتسال، وتستغل بئر المسجد لأغراض أخرى، إذ أن هذه البئر لا يغور ماءها بخلاف غيرها من آبار القصر، ففي وقت الجفاف يسقي منها الجميع، كما تسقى منها الدواب والبهائم ولا سيما في وقت الحصاد والدرس والموسم الفلاحي.

تحتوي قاعة الوضوء على حمامات تم ترميمها وإعادة صيانتها أكثر من مرة، إلا أن البحث أثبت أن هذه الحمامات قديمة بقدم المسجد، وينبذر للعقل أنها أنشئت لطلبة العلم وحفظة القرآن الكريم، ثم توسع الأمر إلى استغلالها من قبل رواد المسجد من سكان القصر وغيرهم من الغرباء.[11] كما تحتوي قاعة الوضوء على مكان للوضوء منحدر قليلا على الأرضية، ومنه يتسرب الماء إلى خارج المسجد، وبجانبه مقاعد مبنية بالحجر والطين للجلوس عليها أثناء الوضوء.

المطلب الثالث: قاعة تسخين الماء [12]

توجد ضمن مرافق المسجد قاعة متوسطة المساحة، على يسرها بيت صغير لتخزين الحطب، خاص بالمؤذن لا أحد يجرأ على فتحه أو كسره أو أخذ شيء من الحطب منه غير المؤذن. فالعادة عند سكان القصر قديما، أن المؤذن هو الذي يقوم بتسخين الماء في وقت الصلوات، ولا سيما صلاة الصبح وصلاة الظهر، فإذا استيقظ الناس للصلاة في هذه الأوقات، وجدوا الماء ساخنا للوضوء والاغتسال وكذا الاستحمام الترفيهي، إلا أن هذه العادة قد اندثرت في عصرنا الحالي، فأصبح كل واحد يقوم بتسخين ما يكفيه من الماء جماعة أو فرادى.

كما تحتوي قاعة التسخين على إناء ضخم مصنوع من النحاس الأحمر " السطلة " مشدودة بسلسلة حديدية إلى السقف، أثبت البحث أنها قديمة بقدم المسجد كذلك، كما يوجد فوق إناء التسخين فوهة متسعة صاعدة إلى خارج سطح المسجد ومنها يصعد الدخان إلى الهواء الطلق. وعلى جنبات القاعة دكانة مبنية من الطين يجلس الناس عليها ينتظرون دورهم لتسخين الماء بنظام وانتظام. وتعرف

هذه القاعة ازدحاما كبيرا في وقت المناسبات الدينية، كعيد الفطر وعيد الأضحى وفي وقت الدرس والحصاد وغيرها من المناسبات.

المطلب الرابع قاعة الصلاة " المقصورة"

إن هيكل وشكل عمارة قاعة الصلاة شكل معقد، يتخذ شكل مستطيل، يبلغ طول قاعة الصلاة 17.32 متر وعرضها 11.03 متر، وارتفاع سقفها يبلغ تقريبا 5.20 متر وبداخلها 35 عمودا يحمل السقيفة، ويمثل جدار القبلة عرض هذا المستطيل، يتم النزول إلى قاعة الصلاة من قاعة الوضوء مباشرة عن طريق سلم ذي درجتين من الحجارة والطين، عبر مدخل أمامي يبلغ ارتفاعه ما بين 1.5 متر إلى 2 أمتار وعرضه 89 سنتم، له باب من الخشب خال تماما من كل نقش أو زخرفة. كما يمكن الدخول لقاعة الصلاة من مدخل خلفي مباشرة من الزقاق الخلفي للمسجد الذي يفصل بين المسجد ودار الجامع،[13] يبلغ ارتفاعه ما بين 1.5 متر إلى 2 الأمتار له دفة خالية من كل زخرفة تماما.

تحتوي قاعة الصلاة على منفذ ثالث في الجهة الشرقية للمسجد، ثم إنشاؤه حديثا قصد تهوية المقصورة، وتسهيل الدخول والخروج من وإلى قاعة الصلاة أثناء صلاة الجمعة. له باب خشبي ليس فيه أي زخرفة أو نقش، كما يوجد في القاعة مكان خلفي منعزل ترتفع أرضيته على أرضية المقصورة قليلا، أثبت البحث أنه مكان لقراءة الحزب الذي هو عادة المغاربة في جميع مساجد، يصعد إلية من جهتين اليمين واليسار عبر سلم مبني من الطين والحجر. كما أنه مكان لإيواء المسافرين والغرباء فكانوا يجلسون فيه وينامون، وأهل القصر يتكفلون بأكلهم وشربهم وفراشهم، ويبذو أن هذا المكان اتخذه مؤسس المسجد سيدي علي يوسف رحمه الله، أسوة بالصفة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم التي كانت خلف المسجد لإيواء الفقراء والمساكين فسموا بأهل الصفة.

روى ابن سعد في الطبقات عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: "كان أهل الصفة ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد ويظلون فيه مالهم مأوى غيره".[14]

ويوجد في قاعة الصلاة فتحات للتهوية والإضاءة في الجانب الشرقي للمسجد، وطاقة سمكها بسمك الجدار، فيها توضع قنينة الغاز للإنارة، مفتوحة من الجهتين الأمامية والخلفية لتعطي الضوء لقاعة الوضوء وقاعة الصلاة في آن واحد، وهذا يدل على ذكاء المعماريين الذين سهروا على بناءه.

المطلب الخامس: المحراب

لقد تم ابتكار المحراب في العمارة الإسلامية للربط بين المسجد والكعبة المكرمة، إذ لم يظهر في أي من الأساليب المعمارية قبل الإسلام، سواء من ناحية الشكل الفريد الذي اتخذه أو من ناحية المدلول

الرمزي لتوحيد المسلمين جميعا عند الصلاة في اتجاههم نحو الكعبة، بالإضافة إلى أنه عنصر أساسي في عمارة المسجد.[15]

والمحراب في العمارة الإسلامية هو مكان وقوف الإمام للصلاة، وهو عبارة عن تجويف أو مشكاة في جدار القبلة، وكان دوره هو تحديد اتجاه القبلة والقيام بدور مضخم الصوت للإمام عند تكبيره وتلاوته وركوعه وسجوده أثناء الصلاة.[16] وسمي موقف الإمام من المسجد محرابا لأنه أشرف المجالس في المسجد، ومنه قيل للقصر محراب لأنه أشرف المنازل، وقال أحمد بن عبيد: المحراب مجلس الملك سمي بذلك لانفراد الملك فيه، ولتباعد الناس فيه وكذلك محراب المسجد لانفراد الإمام فيه، وقيل المحراب موضع مستقبل الصلاة سمي بذلك لأن المصلي بطاعة الله محارب لأعدائه أو للشيطان.[17]

وقد اختلف في تاريخ ظهور هذا العنصر المعماري في المساجد، لأن أول من بنى المسجد هو رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث أول ما قام به صلى الله عليه وسلم بالمدينة بناء المسجد، وذلك لتظهر فيه شعائر الإسلام، التي طالما حوربت، ولتقام فيه الصلوات التي تربط المرء برب العالمين، وتنقي القلب من أدران الأرض وأدناس الحياة الدنيا.[18] ولم يثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ محرابا في مسجده ولا عن الخلفاء بعده، وأن أول من أحدثه عمر بن عبد العزيز في عهد الوليد بن عبد الملك.[19]

والمحاريب نوعان: محاريب مسطحة تميزت بها الأضرحة وبعض الأبنية المساجدية، وثانيهما محاريب مجوفة فمنها ما هو ذو تجويف نصف دائري وما هو ذو تجويف قائم الزوايا، ومنها محاريب مجوفة كثيرة الأضلاع.[20] وأقدم المحاريب المجوفة في الإسلام فهو المحراب الموجود في الضلع الجنوبي من المثمن الخارجي لقبة الصخرة، والمحراب الأوسط في الجامع الأموي بدمشق.[21]

شيد محراب مسجد تسركات أو مسجد سيدي علي يوسف كما شيدت المحاريب في العمارة الإسلامية المنتشرة في المناطق الصحراوية، على شكل بسيط ومتواضع لا توجد فيه أي زخرفة سواء داخله أو خارجه، ذو تجويف متوسط غير مقعر، لا يسع وقوف الإمام والسجود فيه مرة واحدة. وإنما يقف الإمام خارجه ويسجد داخله، وربما جاء محراب المسجد على هذا الشكل لأن بعض الفقهاء يكرهون الوقوف في المحراب " جاء في مصنف عبد الرزاق عن الحسن أنه صلى واعتزل الطاق أن يصلي فيه، وقال كره الصلاة في طاق المسجد سعيد بن جبير ومعمر والمراد بطاق المسجد المحراب الذي يقف فيه الإمام، وفي شرح الجامع للحنفية لا بأس أن يكون مقام الإمام في المسجد وسجوده في الطاق، ويكره أن يقوم في الطاق لأنه يشبه اختلاف المكانين "[22] . يمثل المحراب علامة أساسية لاتجاه القبلة في المسجد، ولا يتوسط جدار القبلة حيث يأتي محاديا للجهة اليمنى من الجدار الأمامي للمقصورة، قريب من الباب الرئيسي لقاعة الصلاة، وبني المحراب على هذا الشكل حتى يسمح للإمام بأداء الصلوات في

طمأنينة وخشوع كما أن شكله الهندسي، يعطي موجات صوتية حتى يصل صوته إلى جميع المصلين، وهذا من ذكاء المهندسين المعماريين المسلمين.

المطلب السادس: المنبر

اشتقت الكلمة من نبر، وانتبر الشيء بمعنى ارتفع فالمنبر هو منصة مرتفعة تتسع لوقوف وجلوس الخطيب ويستخدم أيام الجمعة والأعياد والمناسبات.[23]

ووجود المنبر في المسجد دليل على أنه تقام فيه الصلوات الخمس وصلاة الجمعة، وهو عنصر معماري اختصت به المساجد الجامعة دون غيرها من المساجد الراتبة، التي تقتصر على الصلوات الخمس فقط. جاء منبر جامع تسركات أو مسجد سيدي علي يوسف ذات صنع خشبي متوسط الحجم على شكل مستطيل من ثلاث مرقات او درجات، وهذه هي السنة في المنبر إذ ينبغي أن يكون من مرقتين والثالثة يجلس عليها الخطيب ". فعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بدن قال له تميم الداري ألا أتخذ لك منبرا يا رسول الله يجمع أو يحمل عظامك قال بلى فاتخذ له منبرا من مرقاتين "[24]. واتخذ له خزانة داخل جدار القبلة حتى لا يمنع المصلين من السجود، طبقا لما ذهب إليه الفقهاء " أنه يكره اتخاذ المنبر الكبير الذي يضيق على المصلين، إذا لم يكن المسجد متسع الخطة قاله الرافعي وقال القاضي الحسين إن كان لا يضيق لسعة المسجد لم يكره، وهذا في المنبر الذي لا يزال من مكانه، أما لو كان له خزانة وراءه يرد إليها بعد الخطبة فلا لأن حال الخطبة لا صلاة "[25].

جاء منبر مسجد سيدي علي يوسف في الجهة اليسرى للمحراب لا تفصل بينهما إلا مسافة قليلة، وعلاقة المحراب بالمنبر هي علاقة وثيقة مترابطة بينهما حيث " يستحب أن يكون المنبر على يسار القبلة بيمين المصلي إذا استقبل"[26]. واتخاذ المنبر في المسجد من سنن النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في الجمعة والأعياد وغير ذلك من مناسبة الخطابة وهو واقف على جذع نخل في المسجد. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يقول: كان المسجد مسقوفا على جذوع من نخل، فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صنع له المنبر وكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتا كصوت العشار، حتى جاء النبي صلى الله عليه وسلم فوضع يده عليها فسكنت.[27]

المطلب السابع: الشرفات أو العرائس

الشرفات: " جمع شرفة " بفتح الشين والراء تعتبر أصلا من عناصر العمارة الدفاعية في الأسوار والقلاع والأبراج، وهي عبارة عن حجارة تبنى متقاربة في أعلى السور وحوله ليحتمي ورائها المدافعون ويشرفون على المهاجمين ويطلقون عليهم السهام.[28]

تكتسي المسجد شرفات مسننة على طول، وعرض حائطه وعلى زواياه وأركانه، وهذا يدل على ارتباط العمارة الدرعية بالعمارة الإسلامية في المشرق والمغرب، إذ لا تقتصر هذه الشرفات على حائط المسجد فقط بل تكتسي طول السور العظيم الدفاعي للقصر وعلى الأبراج الدفاعية والمنازل.

ولقد استعملت الشرفات لتتويج الواجهات قبل الإسلام في العمائر الساسانية والرومانية، وأول استعمال لها في المباني الإسلامية في قصر الحير الشرقي وفوق مدخل قصر الحير الغربي وعلى الجدار الجنوبي لصحن الجوسق الخاقاني (قصر المعتصم)، والعامة يطلقون على الشرفات تسمية العرائس لأنها في بعض الأحيان تشبه أشكالا أدمية تجريدية تتلاصق أيديها وأرجلها. وقد اتخذت الشرفات أشكالا متعددة أشهرها الشرفات المسننة كما في الجامع الأزهر بمصر، واستمر استعمالها في العصر الأيوبي والمملوكي. ثم ظهرت الشرفات المورقة في أقدم مثال لها بمصر بمدرسة سنجر الجاولي، وفي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ظهرت شرفات يكون الشكل السالب أي الفارغ عكس الشكل الموجب (أي المصمت) كما في مسجد زين الدين يحيى ببولاق، ثم تطورت الشرفات وتلامست وغطى سطحها الخارجي بزخارف نباتية متشابكة، كما في مدرسة الفوري بالأزهر[29]، يجمع دارسوا الفن الإسلامي على أن هذا العنصر الزخرفي أصوله مشرقية، إذ استخدمت الشرفات كنوع من التتويج للحوائط أو البوائك الخاصة بالصحن والواجهات وكلا طابقي المئذنة.[30]

خاتمة:

يعد هذا البحث الموسوم بعنوان " جمال العمارة الإسلامية الدرعية مسجد قصر تسركات نموذجا " ومحاولة الإلمام بجميع جوانب المسجد ومكوناته وأهم خصائصه التخطيطية والمعمارية والزخرفية التي يتميز بها، وما يحمل في طياته من مهارات عمرانية وخبرات هندسية، انطلاقة للغوص في البحث والتنقيب عن جمالية العمارة الإسلامية المغربية بصفة عامة والدرعية خاصة، وقد توصلت من خلال هذا البحث إلى النقاط التالية:

- تميز العمارة الإسلامية الدرعية عن غيرها من العمارات الإسلامية والعربية الأخرى.
- تأثر العمارة الإسلامية الدرعية بالعمارة الإسلامية.
- تمتع المهندس المعماري الدرعي بخبرة عالية في مجال العمارة الإسلامية.
- لفت أنظار الباحثين والمثقفين للنهوض بالبحث في مجال العمارة الإسلامية المغربية.
- أهمية الحفاظ على هذا التراث.
- لفت أنظار المسؤولين للاهتمام بهذا التراث المهدد بالاندثار بسبب التقلبات المناخية.
- دعوة الجهات الوصية لترميم وصيانة العمارة الإسلامية المغربية عامة والدرعية خاصة.

[1] لسان العرب جمال الدين ابن منظور أبو عبد الله الرازي المتوفى سنة 711هـ، دار صادر بيروت الطبعة الثالثة 1414هـ، فصل العين المهملة.

[2] مختار الصحاح زين الدين أبو عبد الله الرازي المتوفى سنة 666 هـ، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، أدار النموذجية، بيروت صيدا، الطبعة الخامسة 1420 هـ، باب العين.

[3] موسوعة المفاهيم الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، نسخة الكترونية.

[4] المصدر السابق.

[5] لسان العرب جمال الدين ابن منظور أبو عبد الله الرازي، فصل السين المهملة.

[6] العمارة الإسلامية في مصر تأليف عليا عكاشة، الجيزة بردي للنشر الصفحة 38 (بتصرف).

[7] طلعة المشتري في النسب الجعفري للشيخ أبي العباس أحمد بن خالد الناصري، الناشر: المؤسسة الناصرية للثقافة والعلم، الجزء الأول الصفحة 127- 128.

[8] القول المبين في سيرة سيد المرسلين، محمد الطيب النجار، دار الندوة الجديدة بيروت الصفحة 193.

[9] مشروع أعمال الترميم قصر أربوات الفوقاني مذكرة تخرج لنيل شهادة الماستر في علم الأثار، إعداد الطالب يحياوي عبد الحكيم، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، ص 55.

[10] معجم مصطلحات العمارة والأثار الإسلامية، تأليف عزة حامد عتمان، حامد عثمان خضر الطبعة الأولى 1428هـ مطبعة الجنادي بأسيوط.

[11] قصة سيدي علي بن يوسف مع سدي أحمد بن ناصر " طلعة المشتري المصدر السابق"

[12] يطلق عليها في عرف أهل القصر " تفضنه "

[13] دار المسجد تسمى دار القبلة أي أعيان القصر " خصصت لتخزين الأشياء التي في ملكية الأعيان كالثمر والثبن والزرع والقمح وغيرها كما أنها مكان لتحفيظ القرآن وتدريس العلم.

[14] الطبقات الكبرى لابن سعد الجزء الأول الصفحة 255.

[15] المحتوى التعبيري للفن الإسلامي وفلسفته التربوية، رسالة ماجستير كلية التربية الفنية جامعة حلوان القاهرة.

[16] معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية الصفحة 263.

[17] اعلام الساجد بأحكام المساجد لشيخ محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة 794، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي الطبعة الرابعة القاهرة سنة 1416هـ، الصفحة 364 .

[18] السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث دروس وعبر، الدكتور محمد الصلابي، دار ابن كثير الصفحة 415.

[19] وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، نور الدين السمهودي الصفحة 281.

[20] معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، عاصم محمد رزق مكتبة مدبولي، الصفحة 32- 33.

[21] العمارة العربية الإسلامية محمد حسين جودي الصفحة 76.

[22] اعلام الساجد بأحكام المساجد الصفحة 364.

[23] موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، الكتاب الثاني الصفحة 27.

[24] أخرجه الإمام أبو داود في سننه في كتاب الجمعة باب في اتخاذ المنبر.

[25] اعلام الساجد بأحكام المساجد لشيخ محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة 794، تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي الطبعة الرابعة القاهرة سنة 1416هـ، الصفحة 373 . 374.

[26] إعلام الساجد بأحكام المساجد المصدر السابق.

[27] أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب المناقب باب علامة النبوة في الإسلام.

[28] موسوعة عناصر العمارة الإسلامية اعداد يحي وزيري مكتبة مدبولي الصفحة 127.

[29] المصدر السابق.

[30] العمارة الإسلامية في الأندلس المؤلف باسيليون بابون مالدونادو، المركز القومي للترجمة، الصفحة 103.